

الأمثل في تفسير كتاب القرآن المنزل

/صفحة 195 / قوله تعالى: " استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر القرآن أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون " الاستحواذ الاستيلاء والغلبة، والباقي ظاهر. قوله تعالى: " إن الذين يحادون القرآن ورسوله أولئك في الآذلين " تعليل لكونهم هم الخاسرين أي إنما كانوا خاسرين لانهم يحادون القرآن ورسوله بالمخالفة والمعاندة والمحادون القرآن ورسوله في جملة الآذلين من خلق القرآن تعالى. قيل: إنما كانوا في الآذلين لان ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر وإذا كانت العزة للجميع فلا يبقى لمن حاده إلا الذلة محضاً. قوله تعالى: " كتب القرآن لأغلبنا أنا ورسلي إن القرآن قوي عزيز " الكتابة هي القضاء منه تعالى. وظاهر إطلاق الغلبة شمولها للغلبة من حيث الحجة ومن حيث التأييد الغيبي ومن حيث طبيعة الإيمان بالقرآن ورسوله: أما من حيث الحجة فإن الإنسان مفطور على صلاحية إدراك الحق والخضوع له فلو بين له الحق من السبيل التي يألفها لم يلبث دون أن يعقله وإذا عقله اعترفت له فطرته وخضعت له طويته وإن لم يخضع له عملاً اتباعاً لهوى أو أي مانع يمنعه عن ذلك. وأما الغلبة من حيث التأييد الغيبي والقضاء للحق على الباطل فيكفي فيها أنواع العذاب التي أنزلها القرآن تعالى على مكذبي الأمم الماضين كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وعلى آل فرعون وغيرهم ممن يشير تعالى إليهم بقوله: " ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون " المؤمنون: 44، وعلى ذلك جرت السنة الإلهية وقد أجمل ذكرها في قوله: " ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون " يونس: 47. وأما الغلبة من حيث طبيعة الإيمان بالقرآن ورسوله فإن إيمان المؤمن يدعوه إلى الدفاع والذب عن الحق والمقاومة تجاه الباطل مطلقاً وهو يرى أنه إن قتل فاز وإن قتل فاز فثباته على الدفاع غير مقيد بقيد ولا محدود بحد وهذا بخلاف من يدافع لا عن الحق بما هو حق بل عن شيء من المقاصد الدنيوية فإنه إنما يدافع لاجل نفسه فلو شاهد نفسه مشرفة على هلكة أو راکبة مخاطرة تولى منهزماً فهو إنما يدافع على شرط وإلى حد وهو سلامة النفس وعدم الإشراف على الهلكة ومن الضروري أن العزيمة المطلقة تغلب العزيمة المقيدة